قرة العيون في أخبار باب جيرون

تمهيد :

هذه رسالة جديدة للمؤرخ الدمشقي شمس الدين محمد بن طولون الصالحي المتوفى سنة ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م . تحدث فيها عن باب جيرون بدمشق وما أثير حوله من مناقشات بين العلماء خلال قرون عديدة ، منذ اشتبه بما أقيم فيه المؤرخ الدمشقي أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ في كتابه « الباعث على انكار البدع والحوادث » ، حتى مجيء ابن طولون نفسه في القرن العاشر .

وقد شارك في هذه المناقشات كبار العلماء في دمشق خلال تلك القرون .

وقد رأينا نشر هذا النص لأنه من النصوص التي تفيد في تأريخ مدينتنا دمشق ، ويقدم مواد لدراسة الطبوغرافية التاريخية لهذه المدينة .

وأصل هذه الرسالة محفوظ في دار الكتب الظاهرية بدمشق ، برقم ٤٦٢٤ عام ، وكنا نقلناه في شباط من عام ١٩٤٦ .

ولم يقع لي نسخة ثانية من النص على كثرة تتبعي آثار هذا المؤرخ .

أما ترجمة ابن طولون ، فقد ذكرنا مصادرها في تواليفنا :

١ — المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة .

٢ — مقدمتنا لكتاب الأئمة الاثنى عشر لابن طولون .

٣ — المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني .

٤ — مادة « ابن طولون » في دائرة المعارف الجديدة لفؤاد افرام البستاني . ولمن شاء أن يرجع اليها للتوسع .

والحمد لله ، على ما أعان ، من نشر النصوص المتعلقة بدمشق ، ومنه نستمد العون على نشر ما لم ينشر بعد وهو الموفق .

بيروت : صلاح الدين المنجد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين . الحمدُ لله الذي لا تغيّره الأزمان . والصلاةُ والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه الأعيان .

وبعدُ . هذا تعليق سميتُه « قرة العيون في أخبار باب جيرون » . وهو :

قال ابن شاكر[1] في كتابه « عيون التواريخ » في سنة ثلاثٍ وخمسين وسبع مئة : وفي سادس عشر صفر منها وقع حريق عند باب جيرون ، فاحترقت دُكان الفقاعي الكبيرة[2] وما حولها ، واتسع اتساعاً فظيعاً . وكانت ليلةً كثيرةَ الهوا ، وارتفع ارتفاعاً عظيماً ، واستمرّ إلى أثناء النهار . فحضر جماعةٌ من الأمراء والحجّابِ ومتولّي البلدة ، وجاء الرجالُ من كلّ مكان فأطفأوه[3] . واستمرّ الحريق [واتصل] بالباب الأصفر النحاس . فبادر ديوان الجامع اليه ، فكشفوا ما عليه من النحاس ، ونقلوه من يومه إلى خزانة الحاصل ، ثم غدَوا عليه يكسرون خشبه بالفؤوس وكان من خشَب الصنوبر ، وهو في غاية القوّة والثبات ، وتأسّف الناسُ عليه لكونه كان من محاسن البلد ومعالمه ، وله في الوجود ما ينيف عن أربعة آلاف سنة . ولم يُرَ بابٌ أوسعَ منه ولا أعلى فيما يُعرَفُ من الأبنية في الزمان منه . وله غلَقان من النحاس الأصفر بمسامير كبار من النحاس بارزة ، وهو من عجائب الدنيا ومحاسنِ دمشق ومعالمها وقديم بنائها ، وقد ذكرته الشعراء في أشعارها ، والعربُ في أمثالها .

(١) توفي سنة ٧٦٤ هـ .

(٢) حدّد ابن كثير مكان هذه الدكان فقال : « عند باب جيرون شرقيه » ووصف الدكان أنها كانت « مزخرفة » . انظر : البداية ١٤ ـ ٢٤١ .

(٣) في الأصل « وأطفأه » .

وهو منسوبٌ إلى ملك يُقالُ له جيرون بن سعد بن عاد بن عوص بن أرم ابن سام بن نوح ، وهو الذي بناه . وكان بناه قبل ابراهيم الخليل ، بل قبل ثمود وهود عليهم السلام ، على ما ذكره الحافظ ابن عساكر في « تاريخه »[1] وغيره . وكان فوقه حصنٌ عظيم . ويُقال بل هو منسوب إلى اسم المارد الذي بناه لسليمان بن داود عليهما السلام . وكان اسم ذلك المارد جيرون . والأوّلُ أشهر وأظهر .

فعلى القول الأول يكون لهذا الباب من المدد المتطاولة ما يقارب خمسة آلاف سنة ، ولكلّ أجلٍ كتاب .

وذكر الحافظُ ابن عساكر في الجزء الأول من « تاريخه » قال :[2] لما فتح عبدُ الله بن عليّ دمشقَ وانتزعها من أيدي بني امية هَدَمَ سورَ دمشق . فوجد صخرةً عليها مكتوب باليونانية . فأتوا براهب يقرأه ، فإذا مكتوب :

« مَنْ رَامَكِ بشرٍّ قصمه الله تعالى . إذا وَهى منكِ جيرون وبلك من خمسة أعين تَقْضُ سورِكِ على يديه بعد أربعة آلاف سنة تعيشين رغدا . فإذا وَهى منك جيرون الشرقي أديل لك ممن تعرّض لك » .

قال فوجدنا الخمسة أعين : عبدالله بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب .

فهذا يقتضي أنه كان لسورها إلى حين إخرابه على يد عبدِ الله المذكور أربعة آلاف سنة ، وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومئة . فعلى هذا يكون لهذا الباب إلى يوم أُخرب من هذه السنة ، أعني سنة ثلاث وخمسين وسبع مئة أربعة آلاف وست مئة واحدى وعشرون سنة والله تعالى أعلم .

---

(١) انظر تاريخ مدينة دمشق ، المجلدة الأولى (تحقيقنا) ص ١٠ ـ ١١ .

(٢) انظر تاريخ مدينة دمشق ، المجلدة الأولى ص ١٥ . والنص هنا يختلف قليلاً عما هو عليه في التاريخ .

وقد ذكر ابنُ عساكر أنّ نوحاً عليه السلام هو الذي أسس دمشق بعد حرّان ، وذلك بعد مضيّ الطوفان[١] .

وقيل[٢] بنى دمشق غلامُ ذي القرنين باشارته ، وقيل غازي الملقّب بدمشق ، وهو غلامُ الخليل عليه السلام .

وقيل غير ذلك من الأقوال .

وأظهرُها أنها من بناء اليونان ، لأن محاريب معابدها كانت موجّهةً إلى القطب الشمالي ، ثم كان بعدهم النصارى فصلّوا فيها إلى المشرق ، ثم كان بعدهم المسلمون فصلّوا إلى الكعبة المشرّفة .

وذكر ابن عساكر[٣] وغيره أنّ أبوابها كانت سبعة ، كلّ منها يتخذون عنده عيداً لهيكلٍ من الهياكل السبعة . فللقمر باب السلام ، وكانوا يسمونه باب الفراديس الصغير . ولعطارد باب الفراديس الكبير ، وللزهرة باب توما ، وللشمس الباب الشرقي ، وللمرّيخ باب الجابية الصغير ، وللمشتري باب الجابية الكبير ، ولزُحل باب كيسان ، وهو الآن مسدود ، وباب النصر وباب الفرَج متجدّدان .

وقد استقصى أخبار دمشق التاج نصر الله بن حواري الحنفي التنوخي[٤] في كتاب سماه « ايقاظ الوسنان في تفضيل دمشق على سائر البلدان[٥] » . وهو في ثلاث مجلدات كبار من أحسن ما صُنّف في معناه . اهـ .

---

(١) انظر المصدر السابق ، ص ١١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٣ ـ ١٤ .

(٣) انظر ما قاله ابن عساكر في ص ١٥ من المصدر السابق .

(٤) هو نصر الله بن عبد المنعم بن حواري التنوخي الحنبلي . من الأدباء . عمر مسجداً بدمشق عند طواحين الأشنان تأنق في عمارته . توفي سنة ٦٧٣ هـ . وسمّاه في الشذرات : شرف الدين . (انظر الشذرات ٥ ـ ٣٤١) .

(٥) في الأصل « ايقاظ الوسنان وأفضل ما يسكن من البلدان » . أثبتنا ما في الشذرات .

وقد قرأتُ على شيخنا العلاّمة تقيّ الدين أبي بكر [بن] قاضي عجلون[١] الشافعي : قلتم ، رضي الله عنكم ؛ قد سألني بعض الأصحاب أن أجمع ما ذكره العلماء ، رضي اللهُ عنهم وأعاد من بركاتهم ، في المكان الذي هو طريقٌ في أحد أبواب جيرون الشمالي احدِ أبواب دمشق المحروسة وتزعم الطائفة الرافضة ومَنْ تبعهم في الجهل والضلال ، ضاعف الله عليهم النكال ، أنّ بعضَ أهل البيت مدفونٌ في هذا المكان ، وذلك من أعظم البُهْتَان ، وإنما هو طريقٌ للمسلمين لا يشكّ فيه مَنْ له أدنى بصيرة وتمسّك بالدين . فأجبتُ السائل إلى ما سأل ليُعْلَمَ الحقُ في ذلك ولا يُلْتَفَت إلى قول كلّ ضالٍّ وهالك . فأقولُ وبالله التوفيق وبيده الهداية إلى سواء الطريق :

قد ذكر حافظُ الإسلام أبو محمد وأبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي ثم الدمشقي الشافعي الشهير بأبي شامة[٢] ، تغمده الله برحمته ، وأعاد من بركته ، في كتابه « الباعث على إنكار البدع والحوادث[٣] » ، وقد روينا عن جماعة منهم قاضي القضاة شيخ الإسلام والحفاظ احمد بن علي بن حجر الشافعي[٤] ، وحافظ البلاد الشامية شمس الدين محمد بن أبي بكر الشهير بابن ناصر الدين الشافعي[٥] ، والشيخ الصالح المسند رحلة وقته ابو الحسن علاء الدين عليّ بن

---

(١) هو تقي الدين أبو بكر بن عبد الله . . . بن قاضي عجلون الشافعي ، شيخ الإسلام . توفي سنة ٩٢٨ هـ . ترجمته في الشذرات ٨ ـ ١٥٧ .

(٢) مؤرخ دمشقي مشهور . توفي سنة ٦٦٥ هـ . انظر كتابنا : المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة ص ٣٣ .

(٣) طبع هذا الكتاب مرتين : الأولى بعناية محمد فؤاد منقارة بالقاهرة سنة ١٩٢٦ ، وظهرت الطبعة الثانية له سنة ١٩٥٥ . انظر كتابنا : معجم المخطوطات المطبوعة ص ٣٨ .

(٤) توفي سنة ٨٥٢ هـ .

(٥) توفي سنة ٨٤٢ هـ .

العلامة عماد الدين ابي الفداء اسماعيل بن محمد بَرْدَس البعلي الحنبلي [١] ، اجازةً خاصة من الأول والثالث ، وعامة من الثاني إن لم تكن خاصة : قال الأول والثاني :

أخبرنا جماعة منهم العلامة أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن عبد الواحد البَعْلي المعروف بالشامي [٢] ، اجازة ، وقال الثالث : أخبرنا الإمام أبو اسحاق ابراهيم ابن محمد اللخمي الأسيوطي [٣] ، قال : أخبرنا العلامة قاضي القضاة بدر الدين أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن سعد الله بن جَماعة [٤] ، اجازةً ، زاد الحافظ ابن ناصر الدين فقال : وأخبرنا الحافظ شمس الدين أبو بكر محمد بن الإمام أبي محمد عبد الله بن أحمد بن المحب السعدي [٥] ، اجازةً ، قال هو والبرهان الشامي أيضاً : أخبرنا الشيخ الفاضل جمال الدين أبو الحسن عليّ بن يحيى بن أبي بكر الشاطبي [٦] ، اجازة ، قال هو وجماعة : أخبرنا الشيخ الإمام العالم الحافظ بقية المجتهدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الشافعي الشهير بأبي شامة رحمه الله ، قال ابن جماعة : إجازةً ، والشاطبيّ قراءةً عليه ، وأنا أسمع في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وست مئة بالمدرسة العادلية بدمشق قال في كتابه المذكور :

---

(١) توفي سنة ٨٤٥ هـ .

(٢) توفي سنة ٨٠٠ ، وهو شيخ ابن حجر .

(٣) توفي سنة ٧٩٠ هـ ، انظر بغية الوعاة ١٨٧ .

(٤) توفي سنة ٧٣٣ هـ . انظر الدرر ٣/٣٤٨ رقم ٧٤٦ وكان قاضي دمشق .

(٥) دمشقي توفي سنة ٧٨٩ . انظر الدرر ٣/٤١٠ رقم ١٢٤٩ .

(٦) دمشقي ، توفي سنة ٧٢١ هـ عن خمس وثمانين سنة .

« قلتُ : ولقد أعجبني ما صنّفه الشيخ أبو اسحاق الجنباني [1] أحد الصالحين ببلاد افريقية في المئة الرابعة ، حكى عنه صاحبُه الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي العباس المؤدّب انّه كان إلى جنبه عينٌ تسمّى عين العافية . [كانت العامة][2] قد افتتنوا بها يأتونها من الآفاق . من تعذّر عليها[3] نِكاح أو ابن قالت : امضوا بي إلى العافية . قال أبو عبد الله : فأنا في السَّحَرِ ذات ليلة إذْ سمعتُ أذانَ أبي اسحاق نحوها . [فخرجتُ][2] فوجدتُه قد هدمها وأذّن الصبح عليها . ثم قال : اللهم قد هدمتُها لكَ ، فلا ترفع لها رأساً . قال : فما رُفعَ لها رأسٌ إلى الآن .

« قلتُ : وأدهى من ذلك وأمرّ إقدامُهم على قطعِ الطريق السابلة بجيرون في أحدِ الأبواب الثلاثة القديمة العادية ، التي هي من بناء الجنّ في زمن سليمان بن داود عليهما السلام ، أو من بناء ذي القَرْنَيْن ، وقيل فيها غيرُ ذلك مما يؤذِن بالتقدّم على ما نقلناه في كتاب « تاريخ مدينة دمشق » حرسها الله تعالى وهو الباب الشمالي . ذكر لي بعضُ مَنْ لا يوثق به في شهور سنة ست وثلاثين وست مئة أنه رأى مناماً يقتضي أن ذلك المكان دُفن فيه بعضُ أهلِ البيت . وقد أخبرني عنه ثقةٌ أنه اعترف له أنه افتعل ذلك ، فقطعوا طريقَ المارّة فيه ، وجعلوا الباب بكماله مسجداً مغصوباً وقد كان طريقاً يضيق بسالكه . فتضاعف الضيقُ والحرَج على مَنْ دَخَلَه وخَرَج ، ضاعفَ اللهُ نكالَ مَنْ تسبّب في بنائه ، وأجزلَ ثوابَ مَنْ أعان على هدمه وإزالة

(١) في الأصل « الجنباني » ، وفي الباعث المطبوع ص ١٩ « الجيناني » .
(٢) الزيادة من الباعث .
(٣) في الأصل « عليه » ، صححناها من الباعث .

اعتدائه ، اتباعاً لسُنة النبيّ ﷺ في هدم مسجد الضِرار [١] أُمرَ صد لأعدائه من الكفار . فلم ينظر الشرع إلى كونه مسجداً ، وهدَمه لما قُصد به من السوء والأذى . وقال الله سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿ لا تقم فيه أبدا ﴾ [٢] . فنسألُ اللهَ الكريمَ معافاته من كلّ ما يخالف رضاه ، وأن لا يجعلنا ممن أضلّه فاتخذ إلهه هواه . انتهى كلام أبي شامة في كتابه المذكور .

ومن ترجمته ما ذكره غيرُ واحد من الأئمة منهم شيخ الإسلام تقيّ الدين ابن قاضي شهبة الأسدي [٣] في « طبقاته » ونرويها عنه إجازة : أنه ذو فنون متعدّدة ، فقيه ، مُقرئ ، نحويّ ، محدّث ، وختم القرآنَ وله ست عشرة سنة ، وأخذ عن الشيخين سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام [٤] ، وشيخ الإسلام تقي الدين ابن الصلاح [٥] . قال الحافظ ابن كثير [٦] : أخبرني الحافظ علم الدين البرزالي عن الشيخ تاج الدين الفزاري أنه كان يقول : بلغه أن الشيخ شهاب الدين أبا شامة رتبته الاجتهاد . وقال الإمام الذهبي [٧] : وكتب

---

(١) انظر خبر هذا المسجد في فتوح البلدان ج ١ ــ ص ٢ (تحقيقنا) .

(٢) سورة التوبة ، ٩ ، الآية ١٠٨ .

(٣) توفي سنة ٨٥١ هـ ، وهو من أكبر مؤرخي الإسلام . وله « طبقات الشافعية » . انظر المؤرخون الدمشقيون ص ٦٤ .

(٤) عبد العزيز بن عبد السلام ، توفي سنة ٦٦٠ هـ . انظر ذيل الروضتين ص ٢١٦ .

(٥) عثمان بن عبد الرحمن ، توفي سنة ٦٤٣ هـ . انظر ذيل الروضتين ص ١٧٦ .

(٦) مؤرخ مشهور ، صاحب « البداية والنهاية » . توفي سنة ٧٧٤ هـ . (المؤرخون الدمشقيون ، ص ٥٥) وانظر قول ابن كثير في البداية ١٣ ــ ٢٥٠ .

(٧) من أكبر مؤرخي الإسلام . وصاحب « تاريخ الإسلام » . توفي سنة ٧٤٨ هـ . انظر عنه كتابنا أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب ، الجزء الثالث ؛ والمؤرخون الدمشقيون ص ٤٥ . وقول الذهبي في تاريخ الإسلام (مخطوط) سنة ٦٦٥ . ونقله النعيمي ولم يذكر المصدر في الدارس ١ ــ ٢٤ .

الكثيرَ من العلوم ، وأتقنَ الفقه ، ودَرّس وأفتى ، وبَرَع في فنّ العربية ، وذكر أنه حَصَلَ له الشيبُ وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وولي مشيخة القراءة بالتربة الأشرفية ، ومشيخة الحديث بالدار الأشرفية[١] . وكان مع كثرة فضائله متواضعاً ، مُطّرحاً للتكليف ، وربما ركب الحمار [بين المداوير] ، وكان مولده بدمشق في أحد الربيعَيْن سنة تسع وتسعين ، بتقديم التاء فيها ، وخمس مئة . ووفاته في شهر رمضان سنة خمسٍ وستين وست مئة . ودُفن بباب الفراديس على يسار المارّ إلى تربة الدحداح[٢] بدمشق المحروسة .

ومن تصانيفه :

شرح الشاطبيّة[٣] .

واختصر « تاريخ دمشق » مرّتين : الأولى وفي خمسة عشر مجلداً[٤] ، وله كتاب « الروضتين في أخبار الدولتين : النورية والصلاحية »[٥] وكتاب الذيل عليها[٦] .

وشرح المقتفى في مبعث المصطفى .

وكتاب الضوء الساري إلى معرفة الباري .

---

(١) انظر عن التربة الأشرفية الدارس للنعيمي ، وعن دار الحديث المصدر نفسه ١/١٩ .

(٢) انظر موقع باب الفراديس وتربة الفراديس المسماة تربة الدحداح في مخطط دمشق القديمة لنا .

(٣) اسمه « ابراز المعاني من حرز الأماني » ، ورأيتُ منه مخطوطة جيدة جداً قديمة في طشقند .

(٤) والاختصار الثاني في خمس مجلدات . (مقدمتنا للمجلدة الأولى من تاريخ ابن عساكر ، ص ٣٨) .

(٥) طبع بمطبعة وادي النيل بمصر سنة ١٢٨٧ ، وظهرت طبعة جديدة لم تتم في القاهرة ، وهي سقيمة ملأى بالأخطاء ، بعناية الدكتور محمد حلمي محمد أحمد .

(٦) طبعه المرحوم أحمد عزة العطار سنة ١٩٤٧ بالقاهرة . ولمصطفى جواد تصحيحات عليه نشرها في مجلة المجمع بدمشق (المجلد ٢٣ والمجلد ٢٤) .

وكتاب المحقّق من علم ما يتعلّق بأفعال الرسول .

وكتاب البسملة الأكبر في مجلد ، والأصغر في آخر لطيف .

وكتاب الباعث على إنكار البدع والحوادث .

وكتاب السؤال [١] .

وكشف حال بني عُبَيْد

ومفردات القرّاء [٢] .

ومقدّمة في النحو .

ونظم « المفصّل » للزمخشري .

وشيوخ البَيْهقي .

وله تصانيف كثيرة ، وأكثرها لم يفرغ منها . رحمه الله تعالى .

وفي « فتاوى » الشيخ الإمام العالم العلاّمة المحدّث علاء الدين أبي الحسن عليّ الشهير بابن العطّار [٣] ، تلميذ الإمام الرّباني أبي زكريا محيي الدين النواوي [٤] .

وقد رويناها عن جماعة منهم شيخ الإسلام قاضي القُضاة الحافظُ أبي الفضل أحمد بن علي بن حَجَر ، عن الإمام أبي إسحاق ابراهيم بن أحمد بن عبد الواحد البعلي عن مصنّفها قال ما لفظُه :

---

(١) في ذيل الروضتين ، وشذرات الذهب ٥ ـ ٣١٨ « كتاب السواك » .

(٢) في ذيل الروضتين « مفردات القراءة » .

(٣) في الأصل « علاء الدين الحسن بن عليّ » وهو خطأ . واسمه ابو الحسن عليّ بن ابراهيم بن داود . توفي سنة ٧٢٤ هـ ، وكان أخا الذهبي بالرضاعة . ويلقب بمختصر النووي ترجم له في الشذرات وفي البداية .

(٤) يحيى بن شرف ، توفي سنة ٦٧٦ هـ . انظر طبقات الشافعية ٥/١٦٥ .

مسألة : هذا الضريح الذي في كم (كذا) باب جيرون الشمالي ، الذي يُقال إنه ضريح ملكة من ذرية عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، هل هو صحيح أو معتل (١) ؟

الجواب : أما الضريح المذكور فهو باطلٌ مُحْدَثٌ لا أصْلَ له ، أُحدِثَ لأغراض فاسدة في الملة السابعة . ولم يذكره الحافظُ أبو القاسم ابن عساكر ، رحمه الله ، في تبور دمشق ، ولا غيرُه . ولا يُعرفُ في ذرية عليّ بن أبي طالب من اسمه ملكة ، فيجب ازالته وإعادته إلى ما كان عليه . وهو طريقٌ للمسلمين مشتركٌ بين خاصتهم وعامتهم . وقد بين ذلك العلماء في كتاب البدع والحوادث التي بدمشق على خلاف الشرع . انتهى جواب ابن العطار المشار إليه .

ومن ترجمته كما ذكره جماعة منهم شيخ الاسلام تقي الدين ابن قاضي شهبة الشافعي في « طبقاته » المتقدّم ذكرها : أنه إمام عادلٌ محدّث ، سمع من خلائق ، وتفقه على شيخ الإسلام محيي الدين النووي ، وأخذ عن الشيخ العلاّمة جمال الدين ابن مالك ، وتولى مشيخة دار الحديث النورية (٢) وغيرها ، ودرّس بالقوصية بالجامع (٣) ، ومرض زماناً بالفالج ، وكان يُحمل في محفّة .

قال الذهبي : سمع وكتب الكثير ، وأفتى ، وصنّف أشياء مفيدة . خرّجتُ له « مُعجماً » في مجلد . انتفعتُ به ، وكان يلقّبُ مختصر النووي . وأصابه فالج أكثر من عشرين سنة . وله فضائل .

---

(١) كذا في الأصل ، ولعلها « مفتعل » .

(٢) انظر عنها النعيمي في الدارس ١ـ٩٩ (نشرة الأمير جعفر الحسني ، ١٩٤٨ ، دمشق) .

(٣) انظر المصدر السابق ١ـ٤٣٨ .

وقال ابن كثير [١] : له مصنفات وفوائد وتخاريج ومجاميع . وباشر مشيخة النورية من سنة أربع وتسعين [إلى هذه السنة ، مدة][٢] ثلاثين سنة .

وقال غيره : أشهر أصحاب النووي وأخصهم به . لزمه طويلاً وخدمه وانتفع به ، وله معه حكايات طويلة ، واطلع على أحواله ، وكتب مصنفاته ، وبيّض كثيراً منها ، وكان مولده يوم عيد الفطر سنة أربع وخمسين وست مئة . ووفاته بدمشق في ذي الحجة سنة أربع وعشرين وسبع مئة . ومن تصانيفه :

شرح العمدة .

ومصنف في الجهاد .

وآخر في حكم البلوى وابتلاء العباد .

وآخر في حكم الاحتكار عند غلاء الأسعار .

وغير ذلك رحمه الله تعالى .

وذكر الشيخ الإمام العالم العلامة حافظ البلاد الشامية شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن ناصر الدين [٣] رحمه الله في « جزء » يتعلق بالمكان المذكور ونرويه عنه إجازة عامة إن لم تكن خاصة ، قال في جزئه المذكور ، بعد أن نقل كلام الإمام أبي شامة المتقدم في كتابه « الباعث » ما لفظه :

« وذكر لي بعض شيوخي ، رحمهم الله تعالى ، أن سبب هذه البدعة الشنيعة أن بعض السؤال جلس عند الباب وسأل الناس من دنياهم ، فكأنه لم

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٤ ـ ١١٢ .

(٢) الزيادة من البداية .

(٣) توفي سنة ٨٤٢ هـ . انظر الضوء اللامع ٨/١٠٣ ؛ والمؤرخون الدمشقيون ص ٦٣ .

يُفتح عليه بشيء . فأدخل رأسه في جيبه وزَبق[1] ثم رفع رأسه صائحاً : يا معشر المسلمين ، ها هنا قبر الست ملكة ، وأنتم تمشون فوقها . فاجتمع حوله عوامُّ الناس واعتقدوا صدقه اتباعَ كلِّ نَاعِقٍ . فمنعوا الناس من المرور في ذلك المكان ثم بنوه مسجداً ، وأحدثوا فيه قبراً لا على شيء ، ونقشوا على عتبةِ الباب اسم ملكة بنسبٍ غير صحيح . وكلُّ ذلك من قَوْلِ الجهلة الطغام . ولقد أُنكر هذا الفعلُ القبيحُ في زمانه ، وأفتى العلماء الأخيارُ ببُطْلانه ، لكنَّ المتوهين (؟) عند المتوجهين من الولاة كانوا يصدّون عن إبطاله جَهْلاً من كلٍّ منهم ، واتّباعاً لهواه .

ولم يزل الباب مسدوداً بذلك المسجد المغصوب بالفجور إلى أن أُحرِق في فتنة عدوّ الإسلام والمسلمين تيمور[2] ، وزال المسجد المغصوب ، فكأنه ما كان ، سوى النقش المُفْتَرى على عتبة الباب ، فأجزَلَ الله الأجرَ والثواب لمن يمحو هذا النقش عن الباب لأنّ محوَه واجب لبُطلانه . والله سبحانه المسؤول أن يعفو عنا بكرمه وامتنانه . اللهم صَلِّ على سيدنا محمد نبيِّ الرحمة وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيرا .

انتهى كلام ابن ناصر الدين في جزئه المذكور .

---

(١) من الألفاظ التي شاعت في العصر المملوكي ، لم أهتد الى المراد منها على الدقة . ووجدتُ في الدارس اللفظة نفسها في الكلام على الشيخ محمد الساوجي في الزاوية القلندرية الدركزينية (٢/٢١٠) . قال النعيمي نقلاً عن الصلاح الصفدي في الوافي : « محمد بن يونس الساوجي ... ثم إنه لبس دلق شعر وسافر إلى دمياط فأنكروا حاله وزيّه ، فزبق (بالباء) بينهم ساعة ثم إنه رفع رأسه فاذا هو بشيبة بيضاء . . » وفي القاموس « زبق لحيته نتفها ، وانزبق في البيت دخل » .

(٢) كان نزول تيمور على دمشق سنة ٨٠٣ هـ .

ونقل الشيخُ العلاّمةُ شيخُ البلادِ الشامية قامعُ المبتدعين ، ناصرُ السُّنّة والدين ، شمس الدين محمد البلاطنسي[١] في مصنّفٍ له في « إنكار البدع والحوادث »[٢] ، وأرويه عنه إجازةً ، ما تقدّم عن الشيخ أبي شامة في أمر المكان المذكور تحذيراً من أن يُعتقَدَ أن به مسجداً أو قبراً . وبلغه في وقتٍ أن بعضَ الجهلةِ جعل فيه صورةَ قبرٍ وعلّق عليه مسابح فأزال ذلك كله رضيَ الله عنه . ولم يَزَل أهلُ السُّنّةِ قديماً وحديثاً على إنكار ذلك قولاً وفعلاً .

وأخبرنا الشيخُ المُعَمَّر أبو العباس ابن الإخنائي الشافعي من لفظه ، وله من العُمُر نحو تسعين سنة فَسَحَ الله في مُدّته ، أنّ الذي نعلمه من حال المكان المذكور : أنّ القَنّاة المعروفة بقناة صالح من قني دمشق المحروسة[٣] مارّةٌ بهذا المكان ، وخارجةٌ من الباب الشمالي المذكور واصلةٌ إلى أربابها . وقد كُشِفَ عنها من نحو عشرين سنة لإصلاحها ، وشاهدَها ، وأن المكان المذكور لم يَزَل كوم تُراب عِدّة سنين إلى أن كان كُمُشْبُغا طولو[٤] نائباً بقلعة دمشق المحروسة بعد الثلاثين وثمان مئة ، وله شَوْكةٌ وجُرْأة ، ومن خواصّه شخص اسمُه فارس ، عمد إلى هذا المكان وهو بقعة صغيرة بها كُوَم تُراب محيط من جهة الباب الشمالي الصغير من باب جَيْرون ، ومن جهة الشمال جداران مملوكان

---

(١) محمد بن عبد الله البلاطنسي ثم الدمشقي . توفي سنة ٨٦٣ هـ / ١٤٥٩ م . انظر السيوطي نظم العقيان ص ١٥٠ . والشذرات ٧ / ٣٠٢ .

(٢) اسمه « الباعث على ما تجدّد من الحوادث » انظر معجم المؤلفين ١٠/٢١٢ .

(٣) انظر ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، المجلدة الثانية (تحقيقنا) ص ٦٩ .

(٤) ترجم له السخاوي في الضوء ٦/٢٣١ : فقال إنه من مماليك طولو بن علي باشا الظاهري . ولي نيابة القلعة بدمشق بعد صرغتمش يابو ، وتوفي في حدود الأربعين (وثمانماية) .

لأربابها ، فبنى فارسٌ المذكور جداراً قبليًّا . انتهى ما أخبرَ به الأخنائيّ .

وأخبر ببناء الجدار المذكور ، على الوجه المذكور ، الشيخُ الصالحُ المعمّرُ شمس الدين التيزينيّ ، أعادَ الله علينا من بركاته .

وفي « تاريخ دمشق » للشيخ الامام حافظ الإسلام أبي القاسم ابن عساكر ، ونرويه عن جماعةٍ من الأئمة أجلّهم قاضي القُضاة شيخ الإسلام أبو الفَضْل أحمد بن حَجَر العسقلانيّ[١] ، تغمّده الله برحمته ، إجازةً ، حدثنا جماعة من الأئمة منهم الإمام العلاّمة أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن عبد الواحد التنوخيّ البعليّ المعروفُ بالشاميّ[٢] ، والإمامُ المسندُ تقيّ الدين أبو بكر ابراهيم بن العزّ بن محمد بن أحمد بن قُدامَة المقدسيّ[٣] ، المعروفُ بالفرائضيّ ، والإمامُ علاء الدين عليّ بن محمد بن محمد بن أبي المجد[٤] الدمشقيّ إمام مسجد الجوْزَة بدمشق — خارج باب الفراديس — ، وهو ابن خطيب عَيْن تَرْما ، إجازةً ، إن لم يكن سماعاً . قال الأول والثاني : أخبرتنا المسندة أسماء[٥] بنت محمد ابن صَصْرى إجازةً — زاد الأول فقال : وعبد الرحيم بن يحيى بن الفرج بن مسلمة اجازةً — قالا : أخبرنا مكي بن مسلم بن علان ، وقال الثالث : أخبرنا القاسم بن مظفّر بن عساكر[٦] ، ومحمد بن أبي بكر بن مشرف ، إجازةً ، قال ابراهيم

---

(١) مرّ أن وفاته كانت سنة ٨٥٢ هـ .

(٢) توفي سنة ٨٠٠ . ترجم له في الدرر ١/١١ رقم ١٤ ،

(٣) لم أجد ترجمة له .

(٤) لم أجد ترجمة له .

(٥) محدثة مشهورة توفيت سنة ٧٣٣ . انظر الدرر ١/٣٦٠ رقم ٩٠٣ ؛ شذرات ٦/١٠٥ .

(٦) هو البهاء القاسم بن مظفر بن محمود بن تاج الأمناء ابن عساكر . توفي سنة ٧٢٣ هـ . انظر شذرات ٦/٦١ .

ابن بركات الخشوعي [١] اجازةً — زاد القاسم فقال : وأخبرنا محمد بن نصر بن محمد اجازةً . قال هو والخشوعي وابن علان : أخبرنا الإمامُ العلاّمة فخرُ الشافعية وإمامُ أهلِ الحديث في زمانه وحامل لوائه أبو القاسم عليّ بن الحسين بن هبة الله ابن عساكر الشافعيّ تغمده الله برحمته — كلهم قالوا : إجازةً ، إن لم يكن سماعًا قال في كتابه « تاريخ دمشق » [٢] : إنه عمل جيرون لمدينة دمشق ثلاثة أبواب مع ثلاثة أبواب البريد ، مع الباب الحديد . إلى آخر ما ذكر .

ومولد الحافظ أبي القاسم مستهل سنة تسع وتسعين — بتقديم التاء فيهما — وأربع مئة . ووفاته في رجب سنة إحدى وسبعين — بتقديم السين — وخمس مئة بدمشق . [٣] .

فتحرّر من هذا كله أنّ المكان المذكور ليس به مسجد ولا قبر لأحدٍ من ذريةِ الإمام عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، ولا غيره ، وإنما هو طريقٌ عام ، ويحرم البناء فيه تحريمًا شديداً لما يحصل به من المفاسد ، وأعظمها إقامة شعائر الرفض به .

ولما بنى فارس من جماعة كمشبُغا طولو في هذا المكان الجدار القبلي المذكور بالظلم والعدوان صار مخزنًا توضعُ فيه الأخشابُ وغيرُها ، ويقع فيه منكراتٌ يراها المارّةُ عليه ، ووُجدَ فيه قتيلٌ في بعض الأحيان ، واستمرّ على ذلك

---

(١) توفي سنة ٦٠٤ هـ . انظر : شذرات ٥/٢٠٧ .

(٢) أنظر تاريخ دمشق ، المجلدة الأولى (تحقيقنا) ص ١٤ ، لكن النص يذكر أن غلام ذي القرنين هو الذي عمل ثلاثة أبواب : جيرون ، مع ثلاثة أبواب البريد ، مع باب الحديد الذي في سوق الأساكفة ... » .

(٣) انظر مقدمتنا لتاريخ دمشق ، المجلدة الأولى . وكتابنا : أعلام التاريخ والجغرافيا ٣/٨١ وما بعدها .

مدّة ، ثم تهدّم ، وزال سقفُه ؛ فسعى بعضُ الجهلة في تجديد عمارته بتسليط الطائفة المخذولة الرافضة في المساكن (؟) إذ لا يُظهرون أنفسهم في ذلك لمقاصدهم الباطلة . فبلغَ أهلُ السنّة من العلماء وغيرهم هذا المنكر الشنيع فثاروا ، وصدّوا عن عمارته ، ويتعيّنُ هذا على كلّ مَنْ قدر عليه ، غيرةً على دين الله تعالى وخوفًا من حصول الافتتان بتجديد العمارةِ المذكورةِ ، ورفعوا قصّةً لمولانا السلطان الملك الأشرف قايتباي [1] — عصمه الله تعالى ، وأجرى الخيرات على يديه — في أيّامه أنهوا فيها حقيقة المكان على ما ذكره الإمام أبو شامة وغيره ، فرسم بما أمرَ اللهُ تعالى ورسولُه من العمل بما ذكره العلماء ، رضيَ الله عنهم ، في أمر المكان المذكور ، وورد مرسومه الشريف بذلك في شهور سنة اثنتين وتسعين وثمانماية ، فحصل به النُصرةُ والسرورُ لأهل السُنّة ، والخذلانُ لأهل الرفض والهمُّ ، وتضاعفَ الدعاء لمولانا السلطانِ ، واجتمع خَلْقٌ كثيرٌ عند المكان المذكور ، وهدّموا الجدار القبلي الذي أحدثه فارسُ المذكور ولم يكن فيه بناء غيره — بحضور جمع من العلماء والقضاة وغيرهم ، وفُتح البابُ الأصليُّ أحدُ ثلاثة أبواب جيرون المذكور ، وأعيدَ المكانُ إلى الصفةِ الأصليّةِ طريقًا للمارّة ، على أحسنِ الهيئات ، وأُزيلَ النقشُ المُفْتَرى على عَتَبَةِ الباب كما قُدّم من حكاية الحافظ ابن ناصر الدين .

وكان قد نُقِشَ معه على العَتَبَةِ قوله تعالى ﴿ إنّما يَعْمُرُ مَساجدَ الله ، الآية ﴾ [2] ، كما يُنقش مثلُه على أبواب المساجد الحقيقية ، إعلامًا بأن

---

(١) هو قايتباي المحمودي الأشرفي الظاهري سلطان مصر . مملوك جركسي . تولّى السلطنة سنة ٨٧٢ وتوفي بالقاهرة سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م . انظر ابن اياس ٢/٩٠ ؛ شذرات ٦/٨ وما بعدها .

(٢) سورة التوبة ، ٩ ، الآية ١٨ .

ذلك مسجد . وفي النقش المذكور على عتبة [الباب] هذا تدليسٌ وتلبيس على مَنْ يجهلُ ما له أن يعتقدَ أنّ المكان المذكور مسجدٌ ، وليس كذلك . فمحوا هذا النقش خوفاً من الاعتقاد الباطل ، فأُزيلَ النقشُ المذكورُ لذلك . مع أنّ العلماء صرّحوا بكراهةِ نَقْشِ القرآن على الحيطان ونحوها ، وكُتِبَ موضعَ ذلك كله على العتبة ما ذكره العلماءُ في أمرِ هذا المكان على الحقيقة ، ليعلمه الخاصُّ والعامّ على توالي الزمان ، ويستمرّ بذلك إنْ شاء الله تعالى طريقاً ماراً كما كان ، محفوظاً من مُحدَثاتِ أهل البدع ، زادهم اللهُ الذُلَّ والهوان ، واستجابَ الله دُعاءَ الأئمة الأعلام ، حُفّاظِ دين الإسلام ، الإمامِ أبي شامة وغيرِه ، لمن أزال ما أحدَثَ في هذا المكان ، وأعاده طريقاً إلى ما كان عليه من قديم الزمان ومَحْيَ ما هو مكتوبٌ على عَتَبة الباب من الزور والبُهْتان ، وازالة هذه البِدْعةِ الفظيعة من أعظم القُرُبات ، وأهمّ المطلوبات .

وأراد الله سبحانه وتعالى — وله الحمدُ والمنّةُ — حصولَ هذا الخير العظيم ، والمعروف الجسيم ، في أيام مولانا السلطان الملك الأشرف أبي النصر قايتباي ، أدام الله له العزَّ والتمكين ، والنصرَ والفتحَ المبين ، ليكون ذلك منقبةً حسنةً له في الدنيا ، ويُسَطّرُ بسببه في صحائفه الشريفة الثواب الجزيل في الأخرى . والله المسؤول أنْ يديمَ ببقائه تأييدَ الدين ، وقمعَ المبتدعةِ والمفسدين بمنّه وكرمه ، ويوفقنا للعملِ بما أمرنا به من الطاعاتِ ، ويجنّبنا عن ما نَهانا عنه من البدع والمخالفات ، بمنّه وطَوْله وقوّته وحَوْله . انتهى من كلام ابن قاضي عجلون .

قلتُ : وفي أيامنا بُني في هذا الباب الصغير المنقوش أعلاه حائطٌ ، وكذا قبليّة ، وجُعل مخزنُ حَطَبٍ للفُرْنِ قبليّة .

ثم أحدثَ نائب الشام جان بردي الغزالي [1] لما أراد الخروج عن طاعة السلطان سليم بن عثمان ، داخل الباب الكبير الذي عليه هذا الباب المنقوش ، بوّابةً بقنطرة حجر ، وأُخذَ قبل أن يُرَكَّبَ لها بابا .

والظاهرُ أن المرادَ من كلام ابن شاكر الذي قدّمناه أوّلاً في باب جيرون بابُ الجامع الأموي ، عمره الله تعالى بذكره ، وسمّاه باب جيرون لكونه من جهة جيرون الذي تقدّم الكلامُ فيه ، أو لعل أصله من بناء جيرون . والله أعلم .

صلاح الدين المنجد

(١) جان بردي بن عبد الله الشهير بالغزالي . مملوك جركسي . كان نائب دمشق في أول الفتح العثماني ثم ادعى السلطنة بدمشق ولقب بالأشرف ، فأرسل اليه السلطان سليمان العثماني عسكراً ، وقُتل الغزالي بين دوما والقصير ودخل العسكر العثماني دمشق . وكان ذلك سنة ٩٢٧ . انظر : ولاة دمشق في العهد العثماني (تحقيقنا) ؛ شذرات ١٥٠/٨ .